

# مجلة الهلال

مايو 1998

## الجمعية التاريخية والحملة الفرنسية

بقلم : د. رءوف عباس

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تعد أقدم الجمعيات العلمية المعنية بالتاريخ في الوطن العربي، تجاوز عمرها الخمسين عاما. وتصدر عنها دورية علمية سنوية تتمتع بسمعة طيبة في الأوساط العلمية الدولية. وقد حرص مؤسسو الجمعية من الأساتذة الرواد أمثال محمد شفيق غريال، ومحمد مصطفى زيادة وأحمد عزت عبد الكريم وغيرهم من جيل آباء التخصص، على أن تلتزم الجمعية الطابع الأكاديمي، فتهتم بنشر الدراسات الرصينة، وتدعو للمحاضرة على منبرها البارزين من المؤرخين المصريين والعرب والأجانب .. لذلك كان أبرز نقد وجه إلى الجمعية ابتعادها عن المساهمة في الحياة الثقافية العامة وعدم اهتمامها بالقضايا التاريخية التي تمس الواقع المعاصر.

ولعل فترة رئاسة أحمد عزت عبد الكريم للجمعية في أواخر الستينات ومطلع السبعينات كانت أكثر الفترات اهتماما بتأصيل قضايا المجتمع المصري، ومازالت أعمال ندوة "الأرض والفلاح في مصر عبر العصور" مرجعا مهما لا يستغنى باحث في تاريخ مصر الاجتماعي عن الرجوع إليه، وكذلك ندوة المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي التي شارك فيها مؤرخون من اليابان شرقا إلى الولايات المتحدة غربا إلى جانب زملائهم المصريين، وجاءت ثمرة الندوة كتابا قيما يعد العمدة في هذا المجال.

وجريا على التقاليد المتوارثة، تحرص الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على تخصيص ندوة كل عام لمعالجة قضية بعينها كثورة 1919، وحركة التأريخ في مصر في نصف القرن، والتغير الاجتماعي في مصر، إلى غير ذلك من موضوعات إضافة إلى ما يلقي من محاضرات نصف شهرية تعالج بعض المسائل التاريخية المهمة. وجرت العادة على أن يطرح في الاجتماع السنوي للجمعية العمومية اقتراح موضوع الندوة السنوية.. وحدث في اجتماع الجمعية العمومية (مارس 1997) أن طرح اقتراح عقد ندوة عن السيد جمال الأفغاني بمناسبة مرور قرن على وفاته، فلم يلق الاقتراح استحسان غالبية الحضور لكثرة ما كتب عن الأفغاني وفكره وأرائه السياسية، وما عقد من ندوات عنه أو عن فكرة الجامعة الإسلامية التي روج لها. وهنا نهض أحد أعضاء الجمعية (نبيل الطوخي)، واقتراح أن تكون ندوة عام

1998 عن "الحملة الفرنسية على مصر" واستقر الرأي أن تكون المعالجة على أساس تقويمي في ضوء ما هو متاح من وثائق مصرية وفرنسية.

### ندوة عن الحملة الفرنسية

وهكذا بدأ الإعداد للندوة من إبريل العام الماضي، لتعقد في مارس 1998، وأسند مجلس إدارة الجمعية إلى صاحب هذا القلم وبعض الزملاء من أعضاء مجلس الإدارة أبرزهم عبد المنعم الجمعي إعداد محاور الندوة، ودعوة الأعضاء للمشاركة فيها، وهو ما تم بالفعل قبل أن تهب على صفحات الصحف المصرية عاصفة الاحتجاج على الاحتفال الرسمي بالحملة الفرنسية، أو بالعلاقات الثقافية المصرية - الفرنسية، ومن منطلق أكاديمي ذاتي نابع من الجمعية التاريخية وحدها دون إيعاز من أحد، فصاحب الاقتراح باحث أعد أطروحته للماجستير عن "مقاومة الصعيد للحملة الفرنسية" وأعضاء الجمعية العمومية التي تبنت الاقتراح في مارس العام الماضي تضم شيوخ وكهول وشباب المشتغلين بالبحث التاريخي في هذا البلد، والجمعية هيئة علمية مستقلة لا تأتمر بأوامر أحد سوى الجمعية العمومية صاحبة هذا الحق قانونا. وجدير بالذكر أن الجمعية العمومية قد وافقت في اجتماعها الأخير على أن يكون موضوع ندوة العام القادم (1999) "مصر في عصر محمد علي، نظرات تقويمية" وذلك بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة مؤسس مصر الحديثة، ولا أظن أن الجمعية العمومية عندما اتخذت هذا القرار، كانت تضع في إعتبارها التحسر على حكم أسرة محمد علي أو التشيع لهوا إنما كان باعثها الأوحى إلقاء الضوء على فترة تحول مهمة في حياة المجتمع المصري، ترى من واجبها أن تعيد تقويمها خدمة لتاريخ الوطن.

هذه مقدمة طويلة لا بد منها لتفسير خلفية الجدل الذي دار بمكتبة القاهرة الكبرى التي استضافت ندوة الجمعية عن "الحملة الفرنسية على مصر - دراسة تقويمية" في المدة من 17-19 مارس 1998. فرغم حرص مقرر عام الندوة، وكذلك الدكتور إبراهيم نصحي رئيس الجمعية على تأكيد أن الإهتمام بعقد ندوة عن الحملة بعيد تمام البعد عما يشاع عن نية بعض الجهات الاحتفال بالمناسبة، وأن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تتناول مثل هذه الموضوعات في إطار أكاديمي هدفه إلقاء الأضواء على الأحداث المهمة في تاريخ مصر خاصة والأمة العربية عامة، عادة تقويم تلك الأحداث بصورة موضوعية، فقد شغلت المنصة خلال الأيام الثلاثة للندوة بتكرار ذلك ردا على مداخلات بعض الحضور الذين وجدوا - على ما يبدو - في عقد الندوة في هذا المكان بالذات مناسبة لإعلان احتجاجهم على نية الاحتفال بالحملة الفرنسية، ودانتهم لدور وزارة الثقافة في هذا الصدد. واضطر الأستاذ كامل زهيرى أن يطلب الكلمة في كل مرة ليروى قصة اللجنة المصرية الفرنسية التي اجتمعت للنظر في الاحتفال بالعلاقات الثقافية بين البلدين، وبدا الأمر وكأنه نوع من تصفية الحسابات بين أنصار ومعارضين تناول الحملة الفرنسية

بالدراسة في هذا الوقت بالذات، وصب البعض جام غضبهم على الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وعدوها ضالعة في إحياء ذكرى الحملة الفرنسية التي كانت عملا استعماريًا محضًا.

ومن الجدير بالتسجيل (للحقيقة والتاريخ) أن غالبية أصحاب المداخلات التي كالت الاتهامات للجمعية التاريخية، كانوا من عابري السبيل الذين جاء كل منهم لحضور جلسة واحدة، لا بهدف مناقشة ما يطرح على المنصة من أفكار وإنما بهدف إعلان موقفه "السياسي" من فكرة (الاحتفال) بالحملة الفرنسية التي لم تكن واردة أصلاً، وعندما أكد مقرر عام الندوة ذلك في ختام الجلسة الأخيرة أساءت "أخبار الأدب" نقل ما دار، بل وأساءت " بصورة واضحة" إلى شخص رئيس الجلسة الأخيرة د. نيلي حنا وهي عالمة فاضلة تعد من عمد المتخصصين في مصر في العصر العثماني ، ولأعمالها حضور بارز على الساحة الأكاديمية الدولية، فرغم من كتب تحقيق أخبار الأدب أنها كانت تمر أمام مكتبة القاهرة الكبرى فطلب منها الدخول لرئاسة الجلسة، وأنها لا علاقة لها بالموضوع (كذا!) وهو أمر يدعو إلى الأسف بقدر ما يثير الإشمئزاز.

### مغالطات غريبة!

وجملة القول أن المؤرخين الذين اعتادوا أن يمعنوا النظر في تاريخ الوطن في مقر جمعيتهم، وجدوا أنفسهم طرفاً في معركة لم تدخل في حسابهم، عندما خرجوا بندوتهم إلى مكان عام يؤمه المتقنون وأشباههم، ولما كان الجدل يحمل مضمونا سياسيا، ويعتمد كثيرا على المغالطة فقد بدا ذلك غريبا على المؤرخين الذين يبنون مواقفهم على الأدلة والبيانات، وخاصة أن محاور الندوة والأوراق التي قدمت تقيم الدليل بوضوح تام على الطابع الاستعماري للحملة الفرنسية، والمقاومة الشعبية التي نظمها الشعب المصري ضدها، ثم قدمت دراسات نقدية لكتاب وصف مصر. ومثل هذا التناول لا يعنى احتفالا بالمناسبات وإنما هو تقويم لحدث كان علامة فارقة في تاريخ مصر.

وإحقا للحق، كانت هناك مداخلات جادة ناقشت الأفكار التي طرحها الباحثون سواء في المحور الأول الذي عالج الوجه الاستعماري للحملة وعلاقته بحركة الاستعمار الأوربي عامة ، والوسائل الهمجية التي اتبعتها بونابرت ضد الجنود المماليك والعثمانيين الذين حاربهم، وضد المقاومة الشعبية المصرية، وما فعلته الحملة بأهل الإسكندرية من بطش، وخلص هذا المحور إلى أن بونابرت رغم محاولته كسب ود المصريين كان غازيا استعماريًا يتبع أحط ما عرف من سبل لإخضاع المصريين.

وعالج المحور الثاني مقاومة المصريين للحملة من خلال ثورتى القاهرة ضد الاحتلال الفرنسي، وثورة الصعيد ومظاهر المقاومة فيها، والقوى العربية التي جاءت إلى مصر للمشاركة في مقاومة الحملة من الحجاز والمغرب، ثم دراسة نقدية لكتاب الجبرتي " مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين".

وتناول المحور الأخير " وصف مصر " باعتبار الأثر الإيجابي البارز للحملة الفرنسية، ولكن بنظرة نقدية، وشمل هذا المحور دراسة الفرنسيين لخطط القاهرة ومدى تأثيرها بأعمال المقريزي وغيره من كتاب الخطط ، وكذلك بحث عن دور الفرنسيين في تخريب بعض أثار القاهرة الإسلامية وعدم دقة علماء الحملة في وصف وتسجيل بعض تلك الآثار، ثم ما سجله علماء الحملة من أثار مصر القديمة التي لم يعد لها وجود الآن ، وأهمية ذلك التسجيل في دراسة تاريخ مصر القديم .

فقد حظيت تلك المحاور بمداخلات مهمة جادة ممن حرصوا على متابعة أعمال الندوة كلها من أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والمهتمين بدراسة التاريخ، ولكن أحدا لم يلتفت إلى تلك المداخلات المهمة فيما جاء بوسائل الإعلام التي رصدت الندوة، وغطت أصوات من نظروا إلى الندوة باعتبارها عملا "احتفاليا" على غيرها من الأصوات، حتى إن واحدة من أصحاب تلك الأصوات لم تملك تعقيا على الإيضاح الذي نقلته من المنصة إلا القول: " مهما قلتم فأنتم بإقامة هذه الندوة تحتفلون فعلا بالحملة الفرنسية!!". وبلغ الأمر بصاحب تحقيق "أخبار الأدب" أن يفسر عدم صدور توصيات عن الندوة بأن منظمي الندوة اضطروا إلى فض الاجتماع دون إصدار التوصيات، ولو سألنا لأجبناه الإجابة الصحيحة : فالجمعية المصرية للدراسات التاريخية لم يكن يوما من تقاليدھا إعداد توصيات تصدر في نهاية الندوات، لأنها جمعية أكاديمية توجه خطابها لأعضائها والمهتمين بالبحث التاريخي، ولأنها ترى في التوصيات طقسا لا معنى له، لأنه ليست هناك مؤسسة ثقافية أو أكاديمية لمتابعة هذه التوصيات ووضعها موضع التنفيذ، وبذلك تصبح التوصيات مجرد زوائد دودية للندوات في هذا الوطن.

### المصريون يكتشفون أنفسهم

إن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ترى أن دورها الأساسي خدمة تاريخ مصر والوطن العربي، واستخلاص الدروس المستفادة منه عامة ومن التجارب الخاصة التي عاشها هذا الوطن ، والحملة الفرنسية على مصر كانت من أهم النوازل التي أصابت مصر ، لأنها جعلت المصريين يكتشفون أنفسهم، ويوظفون الطاقات الكامنة فيهم عندما وجدوا المماليك والأتراك العثمانيين وقنتر كوههم وحدهم في مواجهة الحملة الفرنسية الاستعمارية فلم تلت قناتهم، وجعلوا سنوات الحملة الثلاث سنوات توجس واستنفار ، واستفادوا من هذه التجربة بعد خروج الحملة، فلم يعد باستطاعتهم قبول ممارسات السلطة المملوكية – العثمانية التي تعاشوا معها من قبل، وكان اختيارهم لمحمد علي واليا على مصر بإرادة المصريين وشروطهم حدثا جديداً لم تعرفه الدول العثمانية من قبل، وكان رضوخ السلطان لطلبهم اعترافا من جانب الدولة بالمصريين وقيادتهم الشعبية كعنصر فعال على الساحة السياسية.

### بعثات محمد علي لفرنسا!

أما التأثير بالثقافة الفرنسية فقد تأخر إلى ما يزيد على عقدين من الزمان بعد خروج الحملة من مصر، وجاء من خلال سياسة محمد علي التتموية وبناء الجيش الحديث وما ارتبط به من إقامة التعليم الحديث.

وكان اختيار محمد على لفرنسا كمصدر رئيسي للخبرة الفنية والعسكرية يدل على بعد نظره السياسي ، لأن فرنسا عندئذ كانت إمبراطورية مهزومة تلتحق جراحها، وكانت عناصر الخبرة الفنية والعسكرية والثقافية فيها عاطلة عن العمل تعرض خدماتها في السوق لمن يطلبها، فوجد فيهم محمد على ضالته المنشودة ووجه بعثاته التعليمية الأساسية إلى فرنسا .

وجدير بالتسجيل أن مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أحس بالارتياح التام لنجاح تجربة الخروج بندوات الجمعية إلى المنابر التي يؤمها جمهور المتابعين للحياة الثقافية، فقد أتيح للجمعية أن تقدم نموذجاً لمعالجة حدث تاريخي مهم من منطلق وطني وموضوعي تمشياً مع سياسة الجمعية الرامية إلى نشر الوعي بالتاريخ بين المصريين.

ومن هذا المنطلق أيضاً سوف تعقد الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوتها للعام القادم في نفس المكان ( مكتبة القاهرة الكبرى) عن " مصر في عصر محمد علي - دراسة تقويمية". ولعلنا لا نواجه بمن يتهمنا بالرجعية والدعوة إلى إحياء ذكرى حكم أسرة محمد على.